الكتاب الأول

في قواعد الدين

وفيه تسعة أبواب

الباب الأول: في النظر والاستدلال.

الباب الثاني: في أول ما يجب على العباد المكلفين.

الباب الثالث: في التوحيد.

الباب الرابع: في نكت الأئمة في التوحيد.

الباب الخامس: في عجائب خلقة الإنسان.

الباب السادس: في مسألة داخل العالم وخارجه.

الباب السابع: فيما يلزم المكلف اعتقاده.

الباب الثامن: في فرق الأمة.

الباب التاسع: في حكم من تبلغه الدعوة.

obeikandl.com

الباب الأول

في النظر والاستدلال

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

فيما يلزم بالنظر

اعلم أن النظر قانون الاستدلال في الأمور، وحاكم العدل، وقاضي الصدق، ومعيار الشريعة، ومحك الحق والباطل، وبريد المعرفة، وسلطان الحقيقة، وبرهان الشريعة، وترجمان[1] الإيمان، وجاسوس الكلام، وغارس الإسلام، وحجة الأنبياء، ومحجة الأولياء، والسيف القاطع على الأعداء، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالنظر رأس السعادة عند أهل الدنيا والدين. فبقاء الدولة، وقاعدة الأمور وأساس التدابير، وصحة الاعتقاد، وخلاصة التوحيد، في ناصية النظر. كما أن أساس الكفر والشرك في ناصية التقليد، وتذكر ساعة في صنع اللّه وتفكر لحظة في فعل اللّه أفضل، وأحسن من عبادة سبعمائة سنة قيام ليلها وصيام نهارها، وإليه إشارة قوله ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»؛ لأن النظر يوصل العبد إلى المعرفة، فيعرف اللّه تعالى، ومن عرف اللّه تعالى فقد نال العز الأبدي والسعادة الكلية، يا بردها على الفؤاد والكبد. فأهل الدين بالنظر يعرفون حقيقة الدين والمعارف، كما أن أهل الدنيا بالنظر يحصلون مقاصد الدنيا، ولا يمكن

---

[1] تَرْجُمَان: بالفتح ثم السكون ثم الضم ثم الفتح.

معرفة سبيل النجاة من الهلاك إلا بالنظر عرفه من عرفه وجهله من جهله.

الفصل الثاني

في حده وحقيقته

فأقول: حقيقة النظر هو الفكر[١] في حال المنظور فيه لمعرفة حكمه، وقيل: هو فكر القلب في شاهد يدل على غائب، فإن قيل: أطنبت الخطبة وأحسنت السؤل، فما حجتك على صحته؟ وإنه مؤد إلى العلم.

فأقول: في العالم حق وباطل، والناس صنفان: أهل الحق وأهـل الباطـل، وأصحاب الصدق وأصحاب الكذب، ولا يتصور معرفة الحق من الباطل إلا بالنظر. فالآدمي خلق كامل الرأي عظيم التدبير داركاً للمعاني، وأعطاه اللّه الإدراك وهـو العقل، فإذا استعمله على وجهه وقع عنده العلم بالمنظور فيه كمـا يقـع العلـم بالمدركات عند الإدراك. فعند فتح الأجفان يبـصر الأشـياء، وعنـد الاسـتماع والإصغاء يسمع، وعند الاستعمال اللسان يتكلم، فعند النظر يعلم، ولو كان فاسـداً لم يتضمن العلم؛ لأن الفاسد لا يحكم له بقضية صحيحة.

والدليل على أن النظر يوصل إلى العلم - وهو طريـق الحقـائق - فـزع العقلاء إليه إذا التبس عليهم حكم شيء من الغائبات، كما يفزعون إلـى البـصر والسمع في تعريف ما يخفى من أحوال المرئيات والمسموعات. وإذا التبس عليهم شيء من أحوال الحواس الذوق والشم واللمس رجعوا إلى النظر.

دليل آخر: عرفنا أن النظر دليل إلى العلم ضـرورة، فـإن عقـلاء العـالم وجهابذة المعاني مهما نزلت بهم نازلة أو حدث لهم حادث من المشكلات المهمات

---

[١] الفكر: ترتيب أمورٍ معلومةٍ تؤدي إلى مجهولٍ. التعريفات - للعلامة الجرجاني.

فزعوا إلى النظر، وتفكروا وتدبروا ليعرفوا وجه الصواب من الخطأ، والحق من الباطل. فعرفنا بضرورة العقل أن النظر طريق العلم، فها نحن معاشر المسلمين نعرف الحق من الباطل بالنظر، ونعرف الكفر من الإيمان بالنظر، ونعرف اللّه ورسوله بالنظر، وأن الباطنية[١] شر خليقة اللّه، وهم زنادقة كفار ودهرية ضلال. ونعرف أن التقليد باطل، ولا معصوم إلا رسول اللّه ﷺ على رغم الباطنية أعداء اللّه. كل ذلك بالنظر.

وقد قيل: كيف نعرف النظر، أو نعرف الشيء بالشيء، هذا بديع في القياس بعيد يا قاضي العدل إذا حكم عدل؟ فأقول: عن صبوح يرفعون، عرفت شيئا وغابت عنك أشياء[٢]، عرفت صحة النظر بما أعلم به صحته في نفسه، فتصحيح الشيء بما يدعى له الصحة غير متناقض، وإفساد الشيء بما يدعى له الفساد متناقض؛ لأني إذا صححت النظر بجزء من المنظور دخل ذلك الجزء من النظر أيضا في جملة ما صححته، فعرفت صحته مما به صحته في نفسه.

---

[١] الباطنية: ليست الباطنية من فرق الإسلام. وظهرت في أيام المأمون من حمدان قرمط ومن عبد الله بن ميمون القداح. وقد أكفروا أبا بكر وعمر وعثمان وأكثر الصحابة بإخراجهم عليا من الإمامة في عصرهم. وضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم بل أعظم مضرة من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم. الفَرْق بين الفِرَق – للإمام أبي منصور عبد القاهر البغدادي – تحقيق أ/ طه عبد الرءوف سعد – ط مؤسسة الحلبي – ص ٦٨، ١٥٢، ١٦٩.

[٢] وتمام البيت: فقل للمدعي علمًا عرفت شيئًا وغابت عنك أشياء

الفصل الثالث

في وجوبه

فأقول: إن النظر واجب؛ لأن معرفة اللّه تعالى واجبة، ولأن تاركه لا يـأمن العقاب، وهذا معنى الواجب. وبيان أن معرفة اللّه تعالى واجبة، الآيـات الدالـة عليها، وإجماع الأمة.

فأما الآيات فقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٠] ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يـونس: ١٠١] ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] حتى قال العلماء: نزلت ثلاثمائة آية في الحث على النظر والمعرفة. والإجماع منعقد على ذلك، ولأن شيئا من الشرائع في الصلاة والزكاة والقرب لا يصح التقرب به إلى اللّه تعالى إلا بعـد معرفـة اللّـه سبحانه؛ لأن العبادة لا يصح أداؤها إلا بالنية، والنية قصد القلب إلى إفراد الـرب بالعبادة، وقصد من لا يعرف بإفراد العبادة لا يصح.

واعلم أن الطريق إلى المعرفة هو النظر الصحيح، فإن معرفة اللّـه تعـالى ليست ضرورية[1]؛ إذ لو كانت لما تصور فيه الخلاف، كمعرفـة الليـل والنهـار، ووجود الآدمي. فإذا ثبت أن معرفة اللّه سبحانه لا تمكن إلا بالنظر، فالنظر واجب؛ لأن ما لم تتأد العبادة إلا به كان واجبا في نفسه، كالصلاة لا تؤدى إلا بالطهارة، فلا جرم تكون الطهارة واجبة، والأمر بالصعود إلى السطح أمر بنصب السلم.

---

[1] العلم الضروري: هو ما لم يقع عن نظر واستدلال، كالعلم الواقع بإحدى الحـواس الخمـس التي هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس أو التواتر. الورقات – للإمام الجـويني – تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول – ط الأزهرية للتراث – ص ٨.

الباب الثاني

في أول ما يجب على العباد المكلفين

إن أول ما يجب على المكلف القصد إلى النظر المؤدي إلى معرفة اللّه تعالى، فإن قلت إنك مدع، وإذا آل الأمر إلى الدعاوي، استوى كل طائع وغاوٍ.

فأقول: ما أبين الصبح لذي عينين، وإن الرحيل أحد اليومين، والدليل عليه: أن معرفة اللّه تعالى واجبة بالآيات المتقدمة، والسعادة هي اليقين، والدنيا هي فتنة الدين، وما سواه فضلال مبين. فماذا بعد الحق إلا الضلال. فأنى تصرفون؟

واعلم أن الواجب اشتقاقه من السقوط واللزوم، يقال: وجب الحائط إذا سقط وحده في الشرع المنقول وقضية المعقول ما يستوجب اللزوم والعقاب بتركه[1].

وحد النظر هو: فكر القلب وتأمله في حال المنظور فيه، وأقمت الدليل على أن قاعدة الدين هو النظر؛ لأن المسلمين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى مُنْقَرَض العالم إذا نزلت بهم نازلة يرجعون إلى النظر والفكر، سواء كان في أمر الدين أو الدنيا، ويقول بعضهم لبعض: انظروا وتفكروا. ولا يقولون: اسمعوا وتقلدوا، خلافاً لما يدعيه الباطنية الضلال، والملاحدة الجهال، وقال تعالى: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولم يقل: من معلم، وقال: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١] ولم يقل: معصومكم وبركاتكم، وقال: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] ولم يقل: يسمعوا وقال: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ولم يقل: حبشي.

---

[1] الواجب: ما يترتب على فعله الثواب، ويترتب على تركه العقاب.

فعرفت أن الدين بالحجة والبرهان دون التقليد[١] الذي هو عصا العميـان، والعقلاء بقضّهم وقضيضهم ينظرون في أمر الدين والدنيا لمعرفة الـصالح مـن الفاسد، والسار من الضار، فلولا أنه طريق واضح ومنهج لائح لما فزعوا إليه.

فالناس أكيس من أن يمدحوا رجـلا حتى يروا عنـده آثـار إحـسان[٢]

فإن قيل: يا ناصر الدين وفارس المتقين لقد شفيت علتي، وأزحت غلتـي، فمن الموجب اللّه تعالى أو رسوله ﷺ أو العقل؟ ففي هذا مزلة الأقدام ومـدحض الأقوام، فأقول:

أبـا هنـد فـلا تعجـل علينـا وأنظرنـا نخبـرك اليقينـا[٣]

الموجب هو اللّه سبحانه؛ لأنه خالق الأعيان وموجد الخلائق، فالأصل فـي الخطاب خطاب اللّه تعالى، فإنه دليل بنفسه، وما بعده من الخطاب فـرع خطـاب اللّه، صار بخطاب اللّه دليلاً من حيث إنه خالق الأعيان له الخلق والأمـر، ومـا سواه دليل من وجه ومدلول من وجه[٤] مثلاً: خطاب رسول اللّه ﷺ فإنه مـدلول خطاب اللّه، إذ بخطاب اللّه صار دليلاً، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] فلولا خطاب اللّه لما عرفنا خطاب رسول اللّه، وخطاب رسـول اللّـه دليل الإجماع، والإجماع مدلوله وهو دليل القياس، والقياس مدلوله وهـو دليـل الحكم. والخطاب أمر ونهي، وهما سيان في حقيقة الطلـب والاسـتدعاء، فـأمر رسول اللّه ﷺ واجب بأمر اللّه، وطاعته معترض لأمر اللّه، فإذا أمرنا اللّه بشيء

---

[١] التقليد: أخذ قول القائل من غير معرفة دليله.

[٢] البيت من بحر البسيط، ووزنه: (مستفعلن فَعَلُن مستفعلن فعلن)، مرتين.

[٣] البيت من بحر الوافر.

[٤] أي: مدلولٌ عليه.

ونهانا عن شيء فكأنا نسمع خطاب اللّه بتبليغ رسول اللّه، وبواسطته؛ لأنا لا نسمع من اللّه شفاها. والرسول مبلغ ومبشر ومنذر، بشير للموحدين ونذير للملحدين، وكذلك أقوال الصحابة رضي اللّه عنهم حجة بخطاب رسول اللّه وأقوال العلماء حجة بخطاب الرسول، وطاعة الأمراء واجبة بقول الرسول، وطاعة الزوج على زوجته والسيد على غلمانه واجبة بقول رسول اللّه. فليعلم بأن هذا أصل عظيم.

سؤال عظيم: اشتبه على زهاء خمسمائة فلسفي قالوا: كيف نعرف النبي أنه نبي: فإن اللّه لا يخاطبه مواجهة، ولو جاءه ملك احتمل أنه شيطان تصور بصورة ملك، فكيف نثق بقوله؟

الجواب: البراهمة[1] أوتوا حين كفروا من هذه الشبهة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين فنقول: نعرف النبي أنه نبي بطرق ثلاثة:

الأول: أن يخلق اللّه له علمًا ضروريًا، فنعرف أنه رسول اللّه.

الثاني: أن يظهر اللّه آيات وعلامات، فيضطر الرسول إلى أنه من قبل اللّه، وأن البشر يعجز عن مثله.

الثالث: أن يخبره اللّه بما في قلبه وصدره، فيضطر النبي إلى معرفة كلامه؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا اللّه، عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا.

---

[1] البراهمة: من الفرق التي لها حدود وأحكام دون كتاب. وهم من الهند، ومن المنكرين للنبوات. انتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهم، وقد مهدوا لهم نفي النبوات أصلاً. الملل والنحل – للإمام الشهرستاني – ج١، تحقيق/ السعيد المندوه – ط مؤسسة الكتب الثقافية – ص ٢٩، ج٢، ص ٢١٨، ٢١٩. وللإمام الشافعي كتاب في الرد عليهم.

الباب الثالث

في التوحيد

فإن قيل: ما حد التوحيد من الموحد؟ فأقول: على الخبيـر سـقطت؛ حـد التوحيد: العلم بأن اللّه سبحانه واحد بصفاته التي هو عليها، من كونه حياً قادرًا، عالماً مريداً، سميعاً بصيراً، متكلماً.

والموحد: هو العالم بأن اللّه واحد، حي عالم قادر، مريد سميع بصير، متكلم.

والتوحيد: أن يعلم أن اللّه واحد قديم، لم يزل ولا يزال، كان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه، كان عالم بعلم أزلي، قادر بقدرة أزلية، يعلم مثاقيـل الجبـال وأوزانها، وأوراق الأشجار وكمياتها، وقطرات البحـار، ويعلـم عـدد الحيـوان والدواب ومواضعها، يعلم كم المؤمن وكم الكافر وكم الـذكر وكـم الأنثـى وكـم الأحياء وكم الأموات، يسمع كلام نفسه، لا يدخل في الوهم، منزه عـن التقـدير والتحديد، مقدس عن خطرات الخاطر؛ لأن كل ما يقدره الوهم يكون متلونًا مقدراً أو مشبهًا بشيء، واللّه مقدس عن جميع ذلك وكل ما يخطر بالبال، فاللّه بخـلاف ذلك الشيء، وخالق ذلك الشيء، فمن اعتقد هذا فمؤمن موحـد حقًـا. وجملـة التوحيد في حرف واحد وهو: أن يعلم العبد أن القديم لا يشبه المحدث، وأن اللّـه سبحانه لا يجوز عليه الاتصال والانفصال والقرب والبعـد والحلـول والانتقـال والطبع والغش. وقال بعض العلماء: خلاصة التوحيد أن يعتقد العبد أن كـل مـا يتقدر في الوهم ويتصور في الخاطر، فاللّه بخلاف ذلك، وخالق ذلـك، وأن اللّـه تعالى غير مشبه بالذوات، وذاته غير معطلة عن الصفات.

الباب الرابع

في نكت الأئمة[١] في التوحيد

أول دليل على أجل جليل، قال الإمام المطلبي ﷺ: «استقبلني سبعة عشر زنديقًا في طريق غزة، فقالوا: ما الدليل على الصانع؟ فقلت لهم: إن ذكرت دليلاً شافيًا، هل تؤمنون؟ قالوا: نعم، قلت: نرى ورق الفرصاد[٢] طبعها ولونها وريحها سواء، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم[٣]، ويأكلها النحل، فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر، فالطبع واحد إن كان موجبًا عندك فيجب أن يوجب شيئًا واحدًا[٤]؛ لأن الحقيقة الواحدة لا توجب إلا شيئًا واحدًا، ولا توجب متضادات متنافرات، ومن جوز هذا كان عن المنقول خارجًا، وفي التيه والجًا، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها؟! فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر، يحول عليها الأحوال ويغير التارات، قال: فبهتوا، ثم قالوا: لقد أتيت بالعجب العجاب، فآمنوا وحسن إيمانهم». وجاء رجل إلى الإمام أبي حنيفة- رحمه اللّه

---

[١] النكت: جمع (نكتة)، وهي مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر، من نَكَتَ رُمْحَه بأرض: إذا أثّر فيها، وسميت المسألة الدقيقة نكتةً لتأثير الخواطر في استنباطها. التعريفات – للإمام الجرجاني – ص ٢٢٠.

[٢] الفِرْصَاد: هو التوت، أو حَمْلُه، أو أحمره. "القاموس المحيط".

[٣] الإبْرَيْسَم: نوع من الحرير.

[٤] لأن هؤلاء الزنادقة كان إيمانهم بالطبيعة وأنها هي الفاعلة، وأن الأشياء تفعل بطبائعها لا بفعل خالقها ومدّبرها وخالق الطبع فيها، ولو تخلفت إرادته لما كان في طبعها ثمت فائدة ولا عمل، فالنار تحرق بخلق الإحراق عند مماستها، ولو لم يخلق الله الإحراق لما أحرقت النار أبدًا.

تعالى- فقال: ما الدليل على الصانع؟ قال: «أعجب دليل النطفة التي في الرحم والجنين في البطن، يخلقه اللّه في ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة».

ثم إن كان كما زعم أفلاطون الزنديق: «أن في الرحم قالبًا منطبعًا ينطبع الجنين فيه»، فلزم الحمار أن يكون الولد إما مينناثًا أو مذكارًا، لأن الحقيقة لا تختلف. فلما رأينا المرأة تلد ذكرا، ومرة تلد أنثى، ومرة توأمين، وطورا ثلاثة. وتريد أن تلد فلا تلد، وتريد أن لا تلد فتلد، وتريد الذكر فتكون أنثى، وتريد الأنثى فيكون الذكر، على خلاف اختيار الأبوين. فعرفنا قطعا أنه قدرة قادر عالم حكيم، وأن الفلاسفة ينادون من مكان بعيد. لقد هلكوا وباللّه كفروا، ووقعوا في الهوى، فتباً لمن يدعي الفهم وهو أعمى.

دليل: قال الشافعي ﷺ وقد سئل عن التوحيد؟ فقال: «رأيت قلعة حصينة ملساء ولا فرجة فيها، ظاهرها كالفضة، وباطنها كالذهب الإبريز، وجدرانها حصينة محكمة، ثم رأيت الجدار ينشق، فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير مصوت، فعلمت ضرورة أن الطبيعة لا تقدر على ذلك، وأنه فعل صانع حكيم. فالقلعة هي: البيضة، والحيوان هو: الدجاجة».

دليل آخر: سأل هارون الرشيد الشافعي ﷺ عن التوحيد؟ فقال: «اختلاف الأصوات، وتردُّد النغمات، وتفاوت اللغات يا أمير المؤمنين، دليل على أن المحرك واحد. والنيران الموقدة المتضادة في تركيب الآدمي، فيألف بعضها على بعض لمصلحة البنية، وقوام البشرية دليل على الصانع».

دليل آخر: قال حكيم: اسأل الأرض من شقق أنهارك، وأوتد أوتادك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك جؤارًا[1] فقد أجابتك اعتبارًا.

---

[1] الجؤار: من جأر، أي: رفع صوته.

ويقال: شيئان صامتان ناطقان: الوقت والقبر، ويقال: ما الأشياء الصامتة الناطقة؟ يقال: الدلائل المخبرة والعبر الواعظة. دليل آخر ذكره المقدسي قال: من له ملك العالمين، والناس أجمعين، عنده صواعق الزلزلة، وطوارق الحوادث، في وقت الاضطرار في البراري والبحار لذي الجوع والعطش إلى اللّه تعالى. فهذا دليل على الصانع، فإن المؤمن والكافر إذا اضطرا في البر والبحر لا يفزعان إلى الشجر والحجر، بل يفزعان إلى اللّه سبحانه كما يفزع الصبي إلى ثدي أمه، فأمة الترك تقول: يا تكري، وأمة الهند تقول: يا لاح، وأمة المجوس تقول: يا يردان، وأمة العرب تقول: يا اللّه، وأمة العجم تقول: يا خداي. قال يزيد بن عمير في الجاهلية:

إلى اللّه أهدي مدحتي وثنائيا وقولا رضيا لا ينبي الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه إله ولا رب سواه مدانيا
فأنت الذي من فضل مَنٍّ ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له اذهب مع هارون فناديا إلى اللّه فرعون الذي هو طاغيا[1]

دليل آخر: سئل الشافعي ﷺ عن التوحيد؟ فقال: «بالنوم واليقظة عرفت الرب، أريد السهر فيغلبني النوم، وأريد أن أنام فيغلبني السهر». ترى الرجل العادي الضخم العَبْل[2] يغلبه النوم من اختياراته وقد أسره. وقد قال العلماء: النوم واليقظة مثل الحياة والنشور، وكما يشتهي أن يبيت لا يشتهي أن يموت، وكما لا يشتهي في حال النوم أن يستيقظ لا يشتهي أن يحيا، فيحيا إلا بإذن اللّه ذلك، تقدير العزيز العليم.

دليل آخر: قال الحسن بن عليّ: «عرفت اللّه بنسخ العزائم، ونقض الهمم،

---

[1] الأبيات من بحر الطويل.

[2] العَبْل: الضخم من كل شيء. "القاموس المحيط".

وضعف الأركان، وتحويل الحالات في الأزمان».

وقال آخر: بموت الملوك وإبقاء الفقراء. وقـال آخـر: «بِحَـظِّ الجهـول، وحرمان العاقل». وقال آخر: «عرفت اللّه بليل داج، ونهار وهاج، وسـماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، ورياح ذات عجاج، وأرض ذات سبل وفجاج، وجبـال مثبتة بلا درج ومعراج، دليل على رب حكيم فراج».

دليل آخر: قال شمس براق، ومعصرات ذات إبراق، وأشـجار ذات أوراق، وقلوب ذات فرح وانشقاق، دليل على حكيم خلاق:

الحمد للّه كم في الأرض من حكـم ... تنبي اللبيب عـن الأيـام والقـدر
إن شئت في فلك أو شئت في رجل ... أو شئت في مدر أو شئت في حجر
كـل يـدل بـأن اللّـه خالقـه ... لا يستطيع دفاع النفع والـضرر[1]

فلنمسك عنان القلم فإن هذا الباب لا ينتهي إلى حد.

الباب الخامس

في عجائب خلق الإنسان

ولقد أبدع اللّه سبحانه معاشر المسلمين الآدمي في صورة عجيبة وخلقـة بديعة، يعلم بعقله ويعي ببصيرته، ويتكلم بلسانه. فاليـدان لاسـتخدام الأشـياء، والرجلان للسعي، والعينان لمشاهدة الدنيا، والمعدة للهضم، والكبد لطبخ الغـذاء، والطحال للفكرة، والأمعاء للفضول، والفرج لإقامة النسل، والـذكر آلـة لـذلك، فتبارك اللّه أحسن الخالقين. والرأس أشرف الأعضاء، ويقال: الـرأس صـومعة الحواس، ومواده من القلب، وخلقه بأعضاء مفردة ومزدوجة، فالمفرد مذكر فـي

---

[1] الأبيات من بحر البسيط.

اللغة، والمزدوج مؤنث. فجعل الرأس مفردًا للاكتفاء به، فلو جعل له رأسين لكان زيادة من غير فائدة. وخلق اليدين مزدوجة، لحاجة كل واحدة إلى إعانة الأخرى كما قال الصادق عليه السلام[1]: خلق اللّه في شبر من الإنسان أربع جواهر، وهم: العينان وماؤهما مالح، ولولاه لذابتا؛ لأنهما شحمة. والأذن وماؤها مُرٌّ، ولولاه لما امتنعت الهوام من دخولها. والمنخر وفيه حموضة الاسترواح والاستنشاق. والفم وماؤها عذب الاستطعام.

فسبحان من أنطقه بلحم، وأبصره بشحم، وأسمعه بعظم. وأعجب من هذا تصور في الرحم في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا تراه عين ولا تناله يد، فيخرج سويًّا. فلو خلق له لسانين لكانا ثقيلين عليه من غير حاجة، فلو تكلم بأحدهما كان الآخر معطلاً، وان تكلم بكلام واحد كان أحدهما لغوًا، وإن تكلم على خلافه لم يدر السامع على أي القولين يقول: فتبارك من جعل لمنافذ البول والغائط إشراجًا يضبطها لكي لا يجري جريا دائمًا، فيفسد عليه عيشته، وفي حسن التدبير أن يكون الخلاء في أستر موضع من الدار، فكذا المنفذ المهيأ للخلاء في جسد الإنسان في أستر موضع. وجعل الريق يجري دائمًا إلى الحلق فلا يجف، فلو جف الحلق واللهاة والفم لهلك الإنسان.

فتفكروا معشر العقلاء، وتأمل يا صدر المعالي وعلم الرؤساء في الحفظ والفهم، فلو عدم الآدمي الحفظ والفهم لاختل عيشه، فلم يحفظ ماله وما عليه، وما أخذ وما أعطى، وما يتذكر من أحسن إليه ممن أساء، وتفكر في النسيان وعظم نعمة اللّه فيه، فلولاه لما سلا أحد عن مصيبته ولا انقضت له حسرة ولا مات له حقد. ثم تفكر في الحياء خص به الآدمي دون سائر الأشياء، فلولاه لم

---

[1] يعني: السيد جعفر الصادق عليه السلام.

يقر الضيف، ولم يقع الوفاء بالعدات[١]، ولم تقض الحوائج، ولم يتخير الجميل ولم يتجنب القبيح. وتفكر في كتمان الأجل فلو علم الآدمي مدة حياته وكميـــة عمـــره لتنغص عيشه، فلو عرف مقداره وكان قصيرا لم يهنأ بعيش مع ترقب الموت، بل كان بمنزلة من قد فني ماله وأشرف على الهلاك، ولو كان طويل العمـــر وثـــق بالعمر، فانهمك في اللذات على أنه يبلغ شهوته ثم يتوب، وهذا مذهب لا يرضـــاه اللّه تعالى من العباد. ثم تأمل آخراً في الأشياء المعدة في العالم، فالتراب للبنـــاء، والحديد للصناعات، والخشب للسفن، والنحـــاس للأوانـــي، والـــذهب والفـــضة للمعاملة، والجوهر للذخر، والحبوب للغذاء، والثمار للتفكـــه، واللحـــوم للمأكـــل، والطيب للتلذذ، والأدوية للتصحح، والدواب للحمولة، والحطب للوقود، والحشيش للدواب، والمسك والعنبر للشم، فلم يقدر المحصي أن يحصي هذا الجـــنس، ولـــو صنفنا كتابًا في هذا الجنس لما استقصينا أفراده، واللّه تعالى أعلم.

الباب السادس

في مسألة داخل العالم وخارجه

اعلم أن الملاحدة - لعنهم اللّه - اســـتغوت عـــوام المـــسلمين وضـــعفاء المؤمنين بهذه المسألة، فقالوا: كيف تعرفون اللّه وهو لا داخل العالم ولا خارجه؟ وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] فلا يمكن معرفة اللّه من جهة العقل، وإنما تمكن من جهة المعصوم، كما هو مذهبنا.

نقول: من قال إن معرفة اللّه تعالى مستحيلة غير معقولة، فقولـــه إلحـــاد كقولكم؛ لأنه مخالف للكتاب والسنة، وأقوال مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي،

---

[١] عِدَات: جمع عِدَة بمعنى: الوعد.

ومخالف للمعقول.

أما الكتاب، فقال اللّه تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٠]، فلو لم تكن معرفة اللّه تعالى ممكنة كان الخطاب محالاً، فإن الشرع لا يخالف قضيات المعقول، بقول: الآدمي لا ينظر، والأعمى لا يبصر، والأنبياء بعثوا لدعاء الخلق إلى اللّه.

وأما المعقول: فالصنع لابد له من صانع، والعالم مصنوع فلابد له من هذا، أما نحن نعرفه بتأويل عقولنا، فمن اجتاز في برية فرأى قصراً مشيداً وبناءً رفيعاً فجوز من نفسه أنه انفعل بنفسه من غير فاعل لم يكن إنساناً، بل يكون مجنوناً بمارستان[٢]، فالعالم مع تركبه العجيب لا يكون أقل من بناء جص[١]، وهذا ظاهر. فإن قالوا: أردنا به أنه لا تعرف كيفيته ولا آنيته. الجواب، قلنا: يا مخاذيل هذا تلبيس إبليس، فكيف تدعون كيفية ولا كيفية له؟ وكيف تنسبون آنية ولا آنية له؟ فوصفه بشيء يستحيل في حقه محال. وقوله: لا داخل العالم ولا خارجه، قلنا: هذا السؤال في نفسه محال؛ لأن قائله لا يخلو: إما أن يكون مقراً بأن العالم محدث، أو منكر. فإن كان مقراً، فلا كلام معه لأنه إذا علم أن تفسير العالم كل موجود سوى اللّه، كيف يستجيز أن يكون القديم ملابساً ومشاكلاً للحادث وخارج العالم عدم محض؟ فكيف يقال ذات الباري في العدم؟ فعرفت أن السؤال محال. والجواب الصحيح أن تقول: الباري واجب الوجود، فكان قبل العالم، وجوده واجباً لا يعقل زمان لا يكون فكان، ولا مكان ولا تقدير مكان، فلما خلق العالم كان على

---

[١] المَارَسْتان: بفتح الراء، دار المرضى، مُعَرَّب. يعني المستشفى "القاموس المحيط" مع زيادة.

[٢] الجصُّ: بفتح الجيم المعجمة، معروفٌ، وهو الجير، وهو مُعَرَّب (كَجّ). "القاموس" مع زيادة.

ما كان، والتغيير إنما يرجع إلى الحدوث. أما من كان واجب الوجود فتغيره محال، فلاح من هذا الأصل أن العالم عبارة عن المكان، والمكـــان جـــوهر، والجـــوهر والعرض مخلوقان[١]، واللّه ليس بمحدود وليس من جنس الجواهر والأعـــراض، حتى يوصف بأنه داخل العالم وخارجه.

الباب السابع

فيما يلزم المكلف اعتقاده

وذلك أن يعلم حدوث نفسه وحدوث جميع العالم، وأن الجواهر والأعـــراض محدثة، وإخراجه من العدم إلى الوجود، وجعل أعيان العالم أعيانـــاً، وأعراضـــها أعراضاً، ويعتقد أن الصانع واحد قديم لم يزل موجوداً ولا يزال باقياً، ولا يعدم ولا يفنى، ولا يجوز عليه التغيير والانتقال، وأنه ليس بجوهر ولا عرض، ولا جـــسم ولا صورة ولا جسد، ولا حركة ولا سكون، ولا غم ولا فرح، ولا سهو ولا غفلة، وأنه بلا كيفية ولا آنيَّة[٢]، وأنه منفرد بإحداث الأعيان، لا خالق غيره.

ثم يعتقد قدم الصفات من قدرته، وعلمه وحياته بلا روح ولا نفس، وقدرته على مقدراته قدرة واحدة، ويدرك بسمعه جميع المـــسموعات، ويبـــصر جميـــع

---

[١] الأعراض: جمع (عَرَض)، وهو الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضعٍ أي محلٍ يقـــوم به، كاللون المحتاج في وجوده إلى جسمٍ يحله ويقوم هو به.
والأعراض على نوعين: قارّ الذات، وهو الذي تجتمع أجزاؤه في الوجود كالبياض والسواد. وغيرَ قارّ الذات، وهو الذي لا تجتمع أجزاؤه في الوجود كالحركة والـــسكون التعريفـــات – للعلامة الجرجاني. وتقدم بيان معنى الجواهر أول الكتاب، ١٢٩.

[٢] آنيَّة: نسبة إلى (الآن) يعني: لا يُسأل عنه سبحانه بمتى التي هي للزمان فالزمـــان حـــادث وهو قديم أزلي أبدي.

المرئيات، ويرى ذاته وكلامه أزلياً، صفة قديمة قائمة به، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، لا ضار ولا نافع إلا هو، ولا استطاعة مع الفعل ولا حجة على اللّه ولا حكم، بل هو الحاكم له الحكم والأمر، بعثه الرسل جائز، وأن محمداً ﷺ بالمعجزة الصادقة، وشريعته مؤيدة باقية إلى يوم القيامة، والإجماع حق، والجنة والنار حق، والصراط والميزان والحساب ويوم القيامة حق، وسؤال الملكين في القبر حق، والعذاب في القبر لأهل العذاب حق، والشفاعة حق، ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر. ويعتقد أن الإمامة لأبي بكر أولاً، ثم لعمر، ثم لعثمان، ثم لعليّ. ويعتقد في الباطنية والحلولية[١] والناسخية[٢] أنهم مرتدون شر من المجوس. هذا أقل ما يلزم المكلف اعتقاده.

---

[١] الحلوليَّة: الذين يعتقدون حلول القديم سبحانه في الحادث من مخلوقاته – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

[٢] الناسخية: القائلة بتناسخ الأرواح، وأن الأرواح الصالحة والشريرة تحل في أجساد مخلوقات أخرى كالحيوانات بعد موتها أو كالبشر، وهذا كفرٌ بواح، فإنه ينافي التكليف وأن كل نفس بما كسبت رهينة فكيف بنا لو حلت روح فلان في جسد فلان، فمن منهما الكاسب للشر والفاعل للخير حتى يكون محاسبًا أمام ربه؟.. إلى غير ذلك.

الباب الثامن

في فرق الأمة

افترقت الأمة من أهل القبلة على اثنين وسبعين فرقة، أهل الحـــق مـــنهم السنية الأشعرية، ومن سواهم فضلال.

فالطائفة الأولى: غلاة المعتزلة، ينفون الصفات. وغلاة المشبهة، يثبتـــون الجوارح والمكان للّه تعالى، والقدرية يثبتون القدرة لأنفسهم، ويزعمون أن العبد خالق أفعاله. والمجبرة ينفون القدرة للعبد. والمرجئة والخـــوارج والنجاريـــة[١] والجهمية[٢] والروافض والحرورية[٣]، فالمعتزلة عشرون فرقة: الواصلية أصحاب واصل بن عطاء، والعمروية أصحاب عمرو بن عبيد، والهذيلية أصحاب الهـــذيل العلاف، والنظامية أصحاب نظّام، والإسوارية والإسكافية والبشرية أصحاب بـــشر معتمد وبشر موسى، والمكارية والهاشمية والحائطية أصحاب أحمد بـــن حـــائط، والحمارية أصحاب عسكر مكرم، والمعمرية أصحاب معمر بن عبـــاد، والثماميـــة أصحاب ثمامة بن أشرس، والجاحظية والكعبية والجنانية والبهشمية والشيطانية.

---

[١] النجارية: تنسب إلى الحسين بن محمد النجار، ووافقوا المعتزلة في نفس الصفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر، ووافقوا الصفاتية في خلق الأعمال. الملل والنحل – الإمام الشهرستاني – ج١ ص ٦٣.

[٢] الجهمية: أصحاب جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، من أقواله: أنه لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبيهًا، فنفـــى كونـــه حيًا عالمًا، وأثبت كونه قادرًا فاعلاً خالقاً، لأنه لا يوصف شيء مـــن خلقـــه بالقـــدرة والفعـــل والخلق. المصدر السابق – ج١، ص ٦١.

[٣] الحرورية: هم الخوارج.

فصل: أما المشبهة فتفرقوا على عشرين فرقة: الهاشمية أصحاب هشام، والمعيرية والمنهالية والرزارية واليولنية والكلابية أصحاب عبد الله بن كلاب، والزهيرية والحشرجية والكرامية والمأمونية.

فصل: والجبرية ثلاث فرق: الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الترمذي، والبكرية والضرارية.

فصل: والمرجئة ثلاث فرق: اليونسية الغسانية اليوناتية اليومنية.

فصل: النجارية البرغوثية الزعفرانية المستدركية.

فصل: أما الروافض فأربع وعشرون فرقة: أربع فرق الغلاة السبانية والبابية المغيرة الهشامية والجناحية والمنصورية واليونسية والزيدية والصالحية والجارودية الحريرية اليعقوبية البترية الكيسانية الشريكية التناسخية الخليفية، يقولون لا تجوز الصلاة خلف غير الإمام. الرجعية المترفضة.

فصل: أما الخوارج فعشرون: فرقة الأباضية المحكمية الأزارقة النجدية الصعرية الميمونية العشيبية الخمرية الحارمية المجهولية الصليتية الأخنسية المعيدية الرشيدية السابية اليزيدية الحارثية المكربية الفضيلية السمراخية الضحاكية، فهؤلاء فرق الأمة[١] ضلوا وأضلوا، وبقي من وفقه الله وعصمه على الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

---

[١] راجع في معرفة اعتقادات هذه الفرق كتاب: "الملل والنحل" للإمام الشهرستاني، وكتاب "الفرق بين الفِرَق" للإمام عبد القاهر البغدادي، وغيرها من كتب الفرق والعقائد الكثيرة.

openkandil.com

الباب التاسع

في حكم من تبلغه الدعوة

قال الشافعي- رضي اللّه عنه: ولا أظن أن على وجه الأرض أحداً لم تبلغه دعوة رسول اللّه ﷺ، فلو قدر أن أناسا في جزيرة أو بلدة في أقصى العالم من الترك والروم أو الهند لم تبلغه دعوة محمد ﷺ فلا يجوز قتالهم ما لم تعرض الدعوة عليهم ولا يجب عليهم، أن يسلموا من قبل العقل؛ لأنه آلة وليس بموجب، والموجب هو اللّه تعالى. فإن قتل منهم أحد تؤخذ ديته، وإن ماتوا قبل سماع الدعوة فلا عقاب ولا حساب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقالت المعتزلة: يجب عليهم أن يؤمنوا بالله تعالى بناء على أصلهم أن العقل موجب للمعرفة[1]، وإن عرضت عليهم الدعوة فأبوا وامتنعوا فهم معاندون يجب قتالهم.

قاعدة: يتصور عقلا على مذهب أهل السنة أن يكون جماعة في جزيرة لم يأتهم رسول ولا معصوم، فنظروا وتفكروا من قبل أنفسهم فعرفوا اللّه سبحانه وآمنوا به، وإن لم يروا نبياً قط، وقالت الملاحدة لعنهم اللّه: لا يتصور ذلك وأن عمروا ألف سنة ونظروا ألف سنة؛ لأن المعرفة عندهم سمعية تتلقى من النبي أو الإمام المعصوم. وهذا خزي من قائله قاتلهم اللّه أنى يؤفكون.

---

[1] فمن أصول المعتزلة: أن العقل يدرك حسنًا وقبحاً في الأشياء بذاته، وهو القول بالتحسين والتقبيح العقليين، وأما الأشعرية فلا يجعلون الحسن والقبح إلا من جهة الشرع، إما كان من قبيل نفرة الطبع من القبيح وقبوله للحسن لا فيما يتعلق بالشرائع حلالها وحرامها وواجبها ومندوبها.... .